

فلا تلين للذلة ، ولا تدين بالقلة ، والعربي مجبول على الآباء  
والأنفة ، مفلور على العزة وسمو الهمة والطموح إلى ممالى الأمور  
وبهذه السجايا أحرز ما أحرز في ماضى الزمان من عظمة  
الشان وبسطة السلطان

وقد افتخر سيد ولد آدم عليه السلام في غير ما موقف ،  
وهو القائل في بعض مواقفه الحربية :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وهذا داهية بنى حرب يقول : وضمت رجلى في الركاب يوم  
صفين للحرب ، فتذكرت قول ابن الاطنابة :  
أبت لى همى وأبى بلأى وأخذى الحمد بالثمن الريح  
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تسترحى  
فاتثيت عما أنا فى سبيله

ولممرى ما أخذنا فى مصورنا المتأخرة إلا من ناحية تلك -  
الفلسفة السقيمة المقيمة ، فلسفة الاستكانة والتماوت التى تسربت  
الينا من بثوق المفلولين على أمرهم ، المفجوعين بحريتهم ، المصابين  
بعزتهم وأنفهم ؛ ثم جاء الطامعون بنا فنحنوا فى نارها ، وضاعفوا  
من أضرارها ، إلى أن أصبحنا نحاف من كل شىء حتى من أنفسنا ،  
وزى يومنا أسوأ من أمنا

فاذا أردنا أن نميد سيرة أولينا جذعة ، فملينا أن ننذى  
نفوس ناشئتنا بكل ما من شأنه أن يقرس فيها الشمم والطموح  
الى عمالى الأمور والترفع عن دنياها ، وإرخاص الحياة فى سبيل  
العز ، والاعتقاد بأن الحياة بغير الحرية ضرب من ضروب الموت  
الحقى ؛ والشمر الفاخر أو الفخر الشاعر من أجدى الأغذية  
النفسية وأجمع الأدوية الروحية

ودوحه الفخر فى شعر أبى الطيب كثيرة الأفنان ، بأسقة  
الأغصان ؛ وموقفنا هذا المحدود بالدقائق أضيى من أن يتسع للاحاطة  
بجميع أطراف هذا الموضوع فلا بد من الاختصار والاختصار .  
وليكن اقتصارنا على غصنين هما أكثر تلك الأغصان أزهاراً وأينهما  
ثمارة ، وهما إمامته الأدبية ، وأمنيته السياسية

نشأ أبو الطيب صياً بالمالى متباً بها ، لا يفارقه ظيفها سرحى  
أمامه وتأويلاً على أثره . وتمثلت له أمنيته بالسيادة والملك فكان  
يبنى أن يقهر المتاة من جبابرة عصره ، ويبدل للمزب من أولئك

## الفخر فى شعر أبى الطيب للأستاذ طه الراوى

مصر المجمع العلمى العربى

نريد أن نتحدث عن أبى الطيب ، ولكن هل غادر المتحدثون  
عنه من متردم ؟ ماذا نقول فى شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس  
من متقدمين ومتأخرين ، بله المعاصرين ، من بين ملاح وقادح ،  
وناقذ وشارح ، حتى كان من ازدحام أولئك الأعلام حول هذا  
المنهل أن ازدهرت خزانة الأدب بمشترات الأسفار ، فهل من  
جديد تقوله ؟ هذا ما جال فى خاطرى عند ما تلقيت دعوة لجنة  
المهرجان المحترمة

على أنه لا بد من القول ، فلا بد من اختيار ناحية من نواحي  
شاعرنا والتحدث عنها ، فان وقتت إلى جديد فهو الهدف ،  
وإلا فقد أبلقت منذراً . لا خلاف فى أن أبرز نواحي أبى الطيب  
وأبرعها جمالاً وأروعها جلالاً هى العظمة ؛ وقد سورها لنا بشمره  
أربع تصوير وأروعه ، وقد غفر فى ذلك ما شاء وشادت عبقريته ،  
فليكن موضوعنا إذن : ( الفخر فى شعر أبى الطيب )

والفخر فى شعر هذا الناظم النائر جنوة من نفسه ونفحة  
من روحه ، بل هو ترجمان طموحه ، أو قل هو ذوب نفسه  
الكبيرة ، تارة يتألف قولاً وطوراً يتمثل فملاً

ومن ثم جاء هذا الضرب من شعر شاعرنا مطبوعاً بطابمه  
الخاص ، بعيداً من التكاف والتسلف ، بريئاً من كثير من الماهات  
التي علقت بغيره من شعر أبى الطيب ، ولا يدانيه فى ذلك إلا  
الوصف ، ووصف المعارك خاصة ، وكل ما يتصل بالرجولة والبطولة  
ويرى الخلقون الرابدين أن الفخر ضرب من ضروب  
المجرفة الفارغة والجبروت الكاذب ، وتلك خديمة طباعهم  
الخاملة ، وسجية نفوسهم الخائنة المستخذية التي تستخرىء الهون ،  
وتقنع باللون . أما النفوس الهبولة من طينة الشرف فتأبى إلا  
بمسامة النجوم ومغالبة الخسوم ، ذلك لأن الله برأها حرة

الموالي الذين تشموا العروش من طريق الختل والقدر  
وإنما الناس بالملك ولا تُفْلح عرب ملوكها عجم

يكل منصلت ما زال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم  
أملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم  
بنيت هذه الأمنية في رأس أبي الطيب من يوم عرف نفسه ،  
وملكت عليه مشاعره واستبدت براحتته ، ولم تزل تطوح به  
من بلد إلى بلد حتى لفظ نفسه وسكن رسمه

وكان لها فاحمة شعره وخاتمة . قيل له وهو في المكث  
ما أحسن هذه الوفرة ! فقال :

لا تحمن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال  
على فتى ممثقل صعده يعلها من كل وافي السبال  
وقال من قصيدة هي آخر ما نظم ، وقد وجدت في رحله  
بعد قتله :

سدكت بصرف الدهر طفلاً وافتماً

فأفنته عزماً ولم يُفنتني صبراً  
أريد من الأيام ما لا يريد سواي ولا يجري بخاطره فكراً  
وأسالها ما أستحق قضاءه وما أنا ممن رام حاجته قسراً  
انظر كيف تبادرت هذه الأمنية في نفسه حتى أصبح يراها  
من حقه الذي لا يبين أن يغالب عليه

ولى همة من رأى همتها النوى فتركبني في عزها المركب الوعرا  
تروق بني الدنيا بمجائبها ولى فؤاد بييض الهند لا ييضها مخرى  
ومن كان عزى بين جنبيه حثه

وخيل طوا الأرض في عينه شبرا  
حبت ملوك الأرض مغتبطابهم وفازتهم ملآن من حنق صدرا  
ولما رأيت العبد للحرمالكا أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا  
إلى أن قال :

فان بلغت نفسى المنى فبعزها وإلا فقد أبلغت في حرصها هذا  
الملك هدف أبي الطيب ، ولكن المسالك اشتبهت عليه ؛

فتارة يسلك طريق البراعة في البراعة ، وطوراً يرى طريق  
السيف أهدي وأجدي ، وحيناً يرى أن السال هو الذي يجمع  
عليه الرجال ، وآناً يرى السبيل أن يتولى عملاً لبعض الملوك ،  
ثم يجمله مركزاً لحركته ونواة لمملكته

فهو في هذه السبل إلى أن لقي مصرعه  
وقد جرب الثورة الحمراء في مستقبل عمره فأخفق ، وعاد  
ممتطياً سهوة البيان ، يقالب الأقران ويصارع أحداث الزمان ،  
وتغزوه الرزايا من كل مكان ، وهو معتم بصبر ثابت العزم  
كان شاعرنا قوى الثقة بمكاته البيانية منذ حداثة ، يقول  
في صباه :

إن أكن مُعجَباً فعُجِبَ عجب

لم يجد فوق نفسه من مزيد  
أنا ترب الندى ورب القوافي ورسام العدا وغيظ الحسود  
وقال :

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحت وإذا نظقت فأنتي الجوزاء  
وإذا خفيت على النبي فعاذر ألا تراني مقلة عيما  
ولما تكأثر حساده واحتشدوا له وأسموه من الهجاء قال :  
أرى المتشاعرين غرأوا بذى ومن ذا يحمل الداء العضالا  
ومن يك ذا فم من مريض يجد سرا به الماء الزلالا  
وقال لعلي بن أحمد الأنطاكي :

دعاني اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر  
وما قلت من شعر تكاد بيوته

إذا كتبت ببيض من نورها الخبر  
كأن الماني في فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلقتك النثر  
ويقول للقاضي أبي الفضل الأنطاكي :

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتاً ولكني المهزبر الباسل  
ما نال أهل الجاهلية كلهم شمرى ولا سمت بسحري بابل  
ويقول لأبي المشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللغظ كلانا رب الماني الدقاق  
ونظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة  
من سحرة ذلك العصر فلم يمتبرهم شيئاً مذكورا :

خليلى إني لا أرى غير شاعر فإلهم الدعوى ومنى القصائد  
ويقول عن سيف الدولة :

إذا شاء أن يلهو بأجحة أحق أراه غبارى ثم قال له الحق  
وقد لحظ في شعره عناصر الخلود فقال :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

قصائدكم بالنزل ويتنزل هو بقدود الرماح وبيض الصفاح ، ويتننى  
بالجلاد والكفاح ، فكأنه يقول لهم : لكم ليلاكم ولى ليلاى  
ولكل أن يتنزل بمجيبته . قال فى صدر قصيدة يمدح بها على بن  
أحمد الانطاكى :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وماقولى كذاومى الصبر  
وأشجع منى كل يوم سلامتى وما ثبتت إلا وى نفسها أمر  
تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر  
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فالجهد إلا السيف والفتكة البكر  
وتضرب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وفى صدر أخرى يمدح بها على بن أحمد المرى :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام  
أقراراً ألد فوق شرار ومراماً أبى وظلمى يرام  
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشام  
ولم يفارقه هواه فى ليلاه بمد أن حل بكنف سيف الدولة  
ووجد فيه ذلك الملك الهام ، مل العين والسمع والقواد ، فهو  
ذا يقول :

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة تستجفل الضرغام عن أشباله  
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يجول الموت فى أجواله  
أما فى مصر فقد صانع الأسود أولا ثم لما أعياه أمره نفت  
من سمه ماشاء ، وفارقه على تلك الحال العلومة ، حتى ضمته  
الكوفة الى صدرها ، وهناك أملى قصيدته المشهورتين المقصورة  
والميمية ، وأودعهما ذلك العيب المتأجج ، فن قوله فى الثانية :

مازلت أضحك إبلى كلما نظرت الى من اختصبت أخفافها بدم  
أسيرها بين أسنم أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصم  
حتى رجعت وأقلامى قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقم  
أ كتب بنأبدأ بمدالكتابيه فانما نحن للأسياف كالخدم  
وهنا كرر إيمانه بهذه الحقيقة :

أسمتى ودوائى ما أمرت به فان غفلت فدأى قلة الفهم  
وهذا الايمان لم يمنع شاعرنا من ارتياد عضد الدولة  
وامتداحه ؛ فهل نهمه بقلة الفهم على حد تسميره هو ؟ لا . والذي  
يلوح لنا من منطلق الحوادث أن شاعرنا رأى يده فارغة وأن  
الأقدام على الثورة يتطلب رجلاً ، ولا رجال فى مثل ظروف

على أن اعتداد شاعرنا بامامته فى البيان لم يشغل باله كثيراً ،  
إذ كان يقينه بهذه الأمامة أقوى من أن يحتاج الى الجدال  
والنضال إلا حين يخضه حقه بعض الشعراء ، أو يفغل عنه  
بعض الأمراء ، فينبه هذا ويجيب ذلك ؛ وإنما الشغل الشاغل  
لذهنه تلك الأمنية التى عقد بها فكره وحبس عليها جهده ،  
ومارس منها ممشوقة خلاية جذابة ، ولكنها لا تلين بحال ،  
ولا تدين بوصال ؛ فأكثر من التفتى بها وهى لاهية عنه  
بالسود التنابيل :

سيصحب التصل منى مثل مضربه

وينجلى خبرى عن صمّة الصم  
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أحم حتى لات مقتحم

\*\*\*

إلى أى حين أنت فى زى محرم وحتى متى فى شقوة والى كم  
والا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاق الذل غير مكرم  
فتب واثقاً بالله وثبته ماجد

يرى القتل فى الهيجا جنى النحل فى الفم

أعجب الأدباء بامرئ القيس حيث يقرن فى شعره بين مطاوعة  
الكؤوس ومشهد الحرب الضروس ؛ قالوا : وهذا غاية فى  
الشجاعة . أما شاعرنا فقد خلف امرأ القيس وراه ، وقصر  
كل لذته على اصطدام الصقوف بالصقوف ومقارعة الحتوف  
بالحتوف . طلب إليه بعض أصحابه أن يشرب معه فقال :

ألد من الدمام الخندريس وأحلى من مطاوعة الكؤوس  
مطاوعة الصفائح والموالى وإلغى خيساً فى خيس  
فوق فى الوغى عيشى لآنى رأيت العيش فى أرب النفوس  
وقال فى مثلها :

لأحبتى أن يملأوا بالصافيات الأكوبا  
وعليهم أن يندلوا وعلى ألا أشربا  
حتى تكون الباراة ت السمات فاشربا  
وقال :

ألا جبذا قوم ندمام القنا يُسقونها ربا وساقهم المزم  
وكثيراً ما كان يفسح لهذا المطمح مجالاً فى صدور قصائده  
التي يمدح بها أمراء زمانه ، وبذلك يتنكب نهج الشعراء فى تصدير

## المرأة المسلمة

في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الأنسة نعيمة المغربي

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد جسام الدين القدسي بالقاهرة من حين إلى آخر - بطائفة صالحة من الكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهي خدمة موقفة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحيد مجهوده . من ذلك أنه بإشراف طبع كتاب (الضوء اللامع) في تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الكبير والمؤرخ النقاد شمس الدين السخاوي ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوي وأكثرها شهرة ، يقع في عدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها إلى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثاني عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيرا ما انتصر على اسم الترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التي تلقها من شيوخها إن كان ثمة اجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع في مطالعته وازداد للمؤلف محبة في تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت إلى آخر على حوادث طريفة وفوائد عميقة من أحوال نساء ذلك العهد

والكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولكنه لجأ إلى الإيجاز وإهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذي حدا بالمؤلف رحمه الله إلى ذكر بعض نساء عصره ما دام أنه لم يظهر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجح أحيانا إلى كتاب (شذرات الذهب) بنية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لمن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضا قد منحنا منحى (صاحب الضوء) في الاختصار والاقصار على الاسم والوفاة . ولعل عذر

شاعرنا إلا بالمال ، فانطلق بتمسه في موطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولكن النية حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمال في نظر أبي الطيب إنما هو وسيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفي طليعتهم أبو بكر الخوارزمي ذلك الشتامه الذي لم يسلم من أوصار لسانه إلا القليل وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هذه التهمة . أما أقواله فبرهان آخر :

وما حاجتي في عسجد أستفيده ولكنها في منفر استجده

غفائة عيشي أن تث كرامتي وليس بث أن تث المآكل

ومن يتفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقير بقي علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبي الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجهولة على التعالى أقوى نصيب في تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبي النفس ، حي الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض الماطفة ، صبيا بمالي الأمور زاهدا في سفافها

والعامل الآخر في هذه الفكرة الأوضاع السياسية في البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحا للفتن والفساس ، ونهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختل والغدر ، وقد ساءم في ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالا فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب  
فابالك يفتى يعربى توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا  
الرياسة ؟

ولكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الثاية ، وحالت النية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سى وليس عليه إدراك النجاح

على أن الجهد الذي خانته في ميدان السياسة ، حلق به في سماء الجهد الأدبي فأطلعه فيها شمسا تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطائه امارته السياسية فقد اعترت به امارته الأدبية ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فياقية على مر الأيام  
طه الرازي